الفصل الثالث عشر
الخَلـق والصُّدفـة العشوائيـة[1]

يقول الفيلسوف "برتراند راسل": (ليس وراء الإنسان غاية أو تدبر، إنَّ نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة). [2]

أما هُكسلى فبسذاجة متناهية وتبريرات واهية تنم عن طيش ورعونة وعن خيال واسع فيقول: (لو جلست ستة من القرود على الآت كاتبة وظَلَت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير "!!! " فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلَت تدور فى المادة لبلايين السنين). [3] أما عالم البيولوجيا هيكل "*Heckle*" فقد تطاول أو تغابى حين قال فى هرطقة متغابية: (ائتونى بالهواء والماء وبالأجهزة الكيماوية اللازمة وبالوقت وسأخلق الإنسان). [4]

أما تاريخ الخلق فيحدده جورج جامبوفى كتابه "تاريخ الأرض" وفقا لمعاييره واستنتاجاته وتصوراته كما يلي: (إنَّ الكون قد بدأ تطوره منذ بليون بليون سنه، أما الأرض فقد نشأت حديثا جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين، وظهرت الحياة على الأرض من بليون سنه، وظهرت الحيوانات البرمائية منذ *200* مليون سنة، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها منذ *120* مليون سنة، والإنسان وهو

(*1*) صدفةُ. صادفهُ. مصادفة: لَقِيَهُ على غير موعد ولا توقع. والعشوائية: عدم التعمد والتقصّد.
(*2*) *Limitations of science*. - الله يتجلى فى عصر العلم، صفحة (51).
(*3*) كتاب " الإسلام يتحدى "، صفحة (72) نقلاً عن: *The Mysterious Universe*. *pp. 3 - 4*
(*4*) المصدر السابق، صفحة (78).

أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ *50* مليون سنة). [*1*] فى حين أنَّ علماء الفلك والجيولوجيا والأحافير يقولون بأنَّ الزمن الذى انقضى منذ انفصال الأرض من السَّديم الأصلى حتى ظهور الإنسان يتراوح بين مليون سنة وبين خمسة عشر مليون سنة!!! [*2*]

أمّا دى نواى فتقول تقديراته: (لا بُدّ أنّ الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين، وأنّ الحياة - فى أى صورة من الصُّور - لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض). [*3*]

لقد فسّر التطوريون وجود هذا الكون بنظامه الفريد وقوانينه الدقيقة بواسطة "قانون الصدفة" الذى هو فى رأى "سير جيمس جينز" ليس بكلام فارغ بل هو كما يعتقد ويجزم تماماً وبلى أدنى شك على "قوانين الصدفة الرياضية البحتة*Purely mathematical Law of chance*"[*4*]. **لذا** فإنّ أحد العلماء الأمريكيين يعلق قائلاً: (إنّ نظرية الصدفة ليست افتراضاً إنما هى نظرية رياضية عُليا، وهى تطلق على الأمور التى لا تتوفر فى بحثها معلومات قطعية، وهى تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق فى مكان وقوع حادث من نوع معين، وللوصول إلى نتيجة هى معرفة مدى مكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة). [*5*]

أما "أ. كريسى موريسون *A. Morrison Cresy*" الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك فيعلق على قانون الصدفة قائلاً: (إنَّ حجم الكرة الأرضية، وبعدها عن الشمس، ودرجة حرارة الشمس وأشعتها الباعثة

(*1*) جورج جامبو، تاريخ الأرض.
(*2*) المرجع، صفحة (44).
(*3*) الإسلام يتحدى، صفحة (76)، نقلا عن: *Human Destiny, pp. 30 - 36*
(*4*) المصدر السابق، صفحة (73)، نقلا عن: *Mysterious Universe pp. 3*
(*5*) الإسلام يتحدى، صفحة (73 (نقلا عن: *The Evidence of Gad pp23*.

للحياة، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء، ومقدار ثانى أكسيد الكربون وحجم النيتروجين، وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة، كل أولاء تدل على خروج النظام من الفوضى، وعلى التصميم والقصد، كما تدل أيضاً على أنه طبقاً للقوانين الحسابية الصارمة ما كان يمكن حدوث كل ذلك مصادفة فى وقت واحد على كوكب واحد، مرة فى بليون مرة - إن كان يمكن أن يحدث هكذا - ولكن لم يحدث هذا بالتأكيد. **وحين** تكون الحقائق هكذا قاطعة، وحين نعترف كما ينبغى لنا بخواص عقولنا التى ليست مادية، فهل فى الإمكان أن نعقل البرهان ونؤمن بمصادفة واحدة فى بليون ونزعم أننا وكل ما عدانا نتائج المصادفة؟

لقد رأينا أنَّ هناك *999 999 999* فرصة ضد واحد أى ضد الاعتقاد بأنّ جميع الأمور تحدث مصادفة، والعلم لا ينكر الحقائق كما بيناها، وعلماء الحساب يقرون أن هذه الأرقام صحيحة، والآن تقابلنا مقاومة عنيدة من العقل البشرى الذى يكره النزول عن أفكار مستقلة، لقد كان اليونان القدماء يعرفون أنّ الأرض كروية، ولكن مضى ألفا سنة ليؤمن الناس بصدق هذه الحقيقة. [1] إنّ الأفكار الجديدة تلقى معارضة وسخرية وذماً ولكن الحقيقة تبقى وتثبت.

وهنا أكرر القول بأنّ قصدى من هذه المعالجة للمصادفة هو أن أبين بطريقة علمية واضحة تلك الحدود الضيقة التى يمكن الحياة بينها أن توجَدَ على الأرض، وان اثبت بالبرهان القطعى الواقعى أنّ جميع مقومات الحياة الحقيقية ما كان يمكن أن توجد على كوكب واحد فى وقت واحد بمحض المصادفة). [2]

(*1*) فى حين أن كروية الأرض هى نظرية افتراضية وليست من الحقائق، فقد ثبت أنها بيضوية الشكل " دحى " كما وصفها القران الكريم " والأرض وما دحاها " - الشمس (6). - المؤلف -

(*2*) أ. كريسى موريسون فى كتابه " العلم يدعو للإيمان " الصفحات (191 - 196). بحث

أما البروفيسور "أيودين كونكلين" فيعلق على قانون الصدفة قائلاً: (إنَّ القول بأنَّ الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقى شبيه فى مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفى فى مطبعة). (1)

أما عالم الأعضاء الأمريكى "مارلين ب. كريدر" فيقول "(إنّ الإمكان الرياضى فى توفر العلل اللازمة للخلق - عن طريق الصدفة - فى نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء). (2)، ويقول "جون كليفلاند كوثران"(3) فى مقال لـه بعنوان "النتيجة الحتمية":

(إننا لنرى أنّ التطورات الهامة التى تمت فى جميع العلوم الطبيعية خلال المائة سنة الماضية بما فى ذلك الكيمياء قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية فى المادة والطاقة. وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التى تجعل النتيجة التى نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة. وقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بصورة ثبتت فى الماضى ولا تزال ثابتة فى الحاضر أنّ سلوك أى جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضائل حجمه لا يملك أن يكون سلوكاً عشوائياً، بل أنه على النقيض من ذلك يخضع لقوانين طبيعية محددة. وفى كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن، ولكن بمجرد معرفة القانون وتحديد الظروف التى يعمل فى ظلها يثق الكيمويون فيه كل الثقة، ويظل القانون عاملاً ومؤدياً إلى نفس النتائج.

المصادفة. والكتاب ترجمة لكتابه " *Man does not stand alone* " أى " الإنسان لا يقوم وحدة.

(*1*) الإسلام يتحدى، صفحة (72)، نقلا عن: *The Evidence of God p. 174*

(*2*) المصدر السابق، صفحة (77). نقلا عن: Ibid, p. 67.

(*3*) جون كليفلاند كوثران، هو من علماء الكيمياء والرياضة، حائز على دكتوراه من جامعة كورنل، رئيس العلوم الطبيعية - بجامعة دولت

وليس من المعقول أن يكون لدى الكيماويين كل هذه الثقة فى القوانين الطبيعية لو أنَّ سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائى الذى تتحكم فيه المصادفة، وعندما يتم أخيراً إدراك الأسباب التى تجعل هذا القانون الطبيعى عاملاً وتفسر لنا حقيقته، فإنّ أى أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة فى سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر اندثاراً تاماً.

ومنذ مائة سنة تقريباً رتَّبَ العالم الروسى "ماندااليف" العناصر الكيماوية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً، وقد وجد أن العناصر التى تقع فى قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ويكون لها خواص متشابهة، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة؟

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة ما توصل إليه العلماء السابقون من تفاعل ذرات عنصر (أ) مع ذرات عنصر (ب) وعدم تفاعلها مع عنصر (ج)؟ كلا. إنهم قد فسروا ذلك على أساس أنّ هناك نوعاً من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر (أ) وجميع ذرات عنصر (ب)، ولكن هذا الميل أو الجاذبية منعدم بين ذرات عنصر (أ) وبين ذرات عنصر (ج)..... فهل يتصور عاقل أو يفكر أنَّ المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟. لا شك أنَّ الجواب سيكون سلبياً. بل إنّ المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإنَّ ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وُجدت قبلها.

وتدلنا الكيمياء على أنَّ بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة، وعلى ذلك فالمادة ليست أبدية[1]، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية[1] إذ أنَّ لها بداية،

---

(1) الأبدى هو دائم الوجود.

وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنَّ بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وُجدَت بصورة فجائية، وتستطيع العلوم أن تحدد الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد، وعلى ذلك فإنَّ هذا العالَم المادى لا بُدّ أن يكون مخلوقاً، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان.

فإذا كان هذا العالَمُ المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها فلا بدَّ أن يكون الخلق قد تمَّ بقدرة كائن غير مادي. وتدل الشواهد جميعاً على أنَّ الخالق لا بُدَّ لـه أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة. إلا أنَّ العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى دون أن يكون هناك إرادة. ولا بدَّ لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً. وعلى ذلك فإنَّ النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنَّ لهذا الكون خالقاً فحسب، بل لا بُدَّ أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان. وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون ومدبره وموجهه. إنَّ التّقدم الذى أحرزته العلوم منذ أيام "لورد كلفن" يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا إذا فكرنا تفكيراً عميقاً فإنَّ العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله). [2]

أما "جورج هربرت بلونت" [3] فيقول فى مقال له بعنوان "منطق الإيمان":

---

(1) الأزلى هو ما لا أول له ولا آخِر.

(2) كتاب " الله يتجلى فى عصر العلم " الصفحات (21 - 25). والكتاب هو النسخة العربية لكتاب: "*The Evidence of God* ".

(3) جورج هربرت بلونت: أستاذ الفيزياء التطبيقية، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا.

(... فالأدلة الكونية تقوم على أساس أنَّ الكون متغير، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون أبدياً، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عليا، أما الأدلة التى يبنى على إدراك الحكمة فتقوم على أساس أنَّ هنالك غرضاً معيناً أو غاية وراء هذا الكون ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر، وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية، فالشعور الإنسانى فى نفوس البشر إنما هو اتجاه مشروع أعظم.

ولما كان اشتغالى بالعلوم ينحصر فى التحليل الفيزيائي، فإنَّ الأدلة التى يتجه إليها تفكيرى تعتبر من النوع الذى يبحث عن حكمة الخالق فيما خلق. ولاكتشاف القوانين التى تخضع لها الظواهر المختلفة لا بُدَ من التسليم أولاً بأنَّ الكون أساسه النظام، ثم يتجه الباحث نحو كشف هذا النظام.... ولا يمكن أن يتصور العقل أنَّ هذا النظام قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم أو من الفوضى، وعلى ذلك فإنَّ المفكر لا بد وأن يصل ويسلم بوجود إله منظم لهذا الكون[1]، وعندئذ تصير فكرة الألوهية إحدى بديهيات الحياة، بل الحقيقة العظمى التى تظهر فى هذا الكون والمطابقة بين الفرض والنتيجة تعد برهاناً على صحة هذا الفرض. والمنطق الذى نستخدمه هنا هو أنه إذا كان هنالك إله فلا بد أن يكون هنالك نظام، وعلى ذلك فما دام هنالك نظام فلا بد من وجود إله.... فإذا قارنا بين الشواهد التى يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التى يستدل بها الملحدون فى إنكار ذاته العلية، يتضح لنا أنَّ وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى، وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل، وأنَّ العقل

---

(1) الكون: هو مجموعة الأجرام السماوية.

يدعوا إلى الإيمان)[1]

أما "وحيد الدين خان" فيقول: (ولو افترضنا أنَّ المادة وُجدَت بنفسها فى الكون، وافترضنا أيضاً أنَّ تَجَمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها - ولست أجد أساساً لأقيم عليه هذه الافتراضات - ففى تلك الحال أيضاً لن نظفر بتفسير الكون، فإنَّ صُدفَة أخرى تحول دون طريقنا، فلسوء الحظ أنَّ الرياضيات التى تعطينا نكتة

الصُدْفَة الثمينة هى نفسها التى تنفى أى مكان رياضى فى وجود الكون الحالى بفعل قانون الصدفة). [2]

أما العالِم الطبيعى "إسحاق نيوتن" فيقول: (لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة الوجود)[3].

(1) المصدر السابق، الصفحات (78 - 83).
(2) وحيد الدين خان، كتاب "الإسلام يتحدى"، صفحة (73)، وهو النسخة العربية المترجمة للكتاب باللغة الأردية باسم: *Jadeed Ka challenge*.؛ *Ilme*
(3) العبادة فى الإسلام، يوسف القرضاوي، صفحة (17).